في رحاب الفكر مع راهب الفكر
قراءة في " تعادلية " توفيق الحكيم

أ.محمد قواسمية
المركز الجامعي سوق أهراس

" هل كل من تجرد من حياته في سبيل الفكر ينظمه الزمن في سلك العظماء ؟ لست أظن. و هنا الكارثة. هناك رجال خلعوا رداء الحياة دون أن يلبسوا الفكر ثوبا وضاء. أولئك هم التعساء في الدارين. أخشى أن يكون كتب علي مصير هؤلاء " [1]

بهذا يعرب توفيق الحكيم عن تخوفه من التعاسة كمصير نهائي، هذا الذي جعل حياته ناسكاً في معبد الفن، و تمنى أن يستشهد دفاعا عن قداسة الكلمة و حرية الفكر، و أن يسلكه الزمن في " سلك العظماء "، الذين اختاروا الموت و الشهادة لتعيش أفكارهم.

ولعل هذا الخوف هو الذي دفعه للبحث عن خلاص لذاته و للمجتمع من خلال ما وضعه من كتب تمثل عصارة فكره وخلاصة رحلته في الحياة " لقد وضعت كل مواهبي في كتبي و لم أضع شيئا في حياتي". [2] و لقد بلغ به طموحه الفلسفي أقصاه حين ألف كتابه " التعادلية ".

ولكن، هل قصد تكوين مذهب فلسفي ؟

إن الحكيم لم يقصد قط تكوين مذهب فلسفي بالمعنى الدقيق للكلمة، لأن ذلك يقتضي الدعوة لهذا المذهب وجمع الأنصار له، ناهيك أن كلمة مذهب لم تدخل فكرنا العربي إلا بمدلولها المجازي الصرف. وإنما أراد أن يبلور لنفسه معتقداته الفكرية بطريق مباشر، لعلمه " أن الفلسفة... لا توضع وضعا من مفكر واحد... كما توضع القصة بقلم فنان واحد... الفلسفة نتاج أذهان متعددة. تتداولها بالتعليق و الزيادة ... و الشرح و الإضافة... " [3]

ويعتقد الحكيم بأن تعادليته تبقى صحيحة على الرغم من التطورات التي حدثت في العالم و لذلك يرفض إعادة النظر فيها " لأنها قائمة على طبيعة الحياة...فالحياة ترفض الطغيان...لابد من تعادل بين الفعل و رد الفعل.

ولذلك لا يمكن إعادة النظر في هذه الحقيقة الطبيعية.وكل ما يمكن عمله هو صياغة هذه الحقيقة في منهج فلسفي شامل. لبناء فكري واقتصادي وسياسي وأخلاقي متكامل، وهو ما لا يستطيع القيام به غير الفلاسفة المحترفين وهؤلاء غير موجودين عندنا في الوقت الحاضر. " [4]

وفي تعليله لعدم ذيوع فكرته وعجزها على إحداث تيار فكري له أنصاره، يرى بأن " التيار يقوم عندما يكون عندنا الفيلسوف المنشئ و ليس مدرس الفلسفة في الجامعات ". [5]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

ومهما تكن قيمة هذا التبرير، فإن مدلول" التعادلية"تناثر في معظم كتاباته الفنية والنظرية على السواء، ولكن هذا المدلول لم تتحدد معالمه بصورة مباشرة إلا في كتابه"عصا الحكيم:الذي نشره 1953وجاء فيه تحت عنوان" الله تعويذة الأمريكان":"أن حضارة الإنسان يجب أن تقوم على قدمين ودعامتين"الفكر والإيمان...أي العقل والقلب،أي الدنيا والدين:أي مد نشاط الإنسان واهتمامه إلى ما هو أدنى وإلى ما هو أعلى، أي الحياة في عالمين..عالم المادة، وعالم الروح." [6]وفي مكان أخر تحت عنوان:" لو حكم الفلاسفة"يقول:"إنه لابد في جهاز الإنسانية من محركات الغريزة إلى جانب فرامل الحكمة." [7]وليس في الكتاب بعد ذلك إلا تفريعات منثورة هنا وهناك عن المصدر الأصلي الذي وجد متنفسا له عام 1955حين ألف كتابه التعادلية، والذي معه بلغت الفكرة مرحلة النضج والتبلور، بعد أن كانت مجرد ملامح و إرهاصات في " عصا الحكيم ".

جوهر التعادلية:

والتعادلية قراءة واعية مستكشفة من قارئ جاد كتب إلى الحكيم يسأله عن مذهبه في الحياة و الفن، ذلك أن هذا القارئ حاول أن يدرك مدى صواب رؤيته لمذهب الكتاب.وقد انتهى هذا القارئ إلى أن عقيدة الكاتب"في مجموعها تحاول تفسير" الإنسان"في وضعه العام من الكون بزمانه ومكانه و في وضعه الخاص من المجتمع بأجياله و بيئاته، وأن هذا التفسير يدل على اتجاه، يمكن وصفه بالمذهب"[8]وهذا ما دفعه ليستخلص قواعده وأسسه ليعلن بعد ذلك عن " التعادلية " مذهبي في الحياة و الفن.

وأود أن أشير إلى أن الحكيم ينطلق من الفرض لبناء نسقه الفكري، ويرى بأن ذلك يساعده على تفسير رؤياه، فيذهب إلى أنه"يجب أن نفترض حقائق نسلم بها حتى نستطيع السير في هذا الليل البهيم..ولو لا الفرض في الفلسفة والعلم لما كان هناك تقدم نحو أي تفسير لأي ظاهرة من الظواهر." [9]

فهو يفترض توازنا ثانيا– في الأحوال الطبيعية– بين كافة ميادين الحياة،وفي شتى مستوياتها. و قد أراد أن يرفع اللبس عن هذه الكلمة وأهم تفرعاتها ودلالاتها فقال:"لا ينبغي أن تؤخذ كلمة " التعادل"هنا بالمعنى اللغوي الذي يفيد"التساوي"ولا بالمعنى الذي يعنيه "الاعتدال"أو" التوسط "هنا معناها"القوة المقابلة " أو المناهضة. فإذا لم يفهم معنى الكلمة على هذا الوضع، فإن " التعادلية " تفقد حقيقة معناها ومرماها". [10]

والحق أن الحكيم بوضعه كلتا يديه على ثنائيات المجتمع كان قد عرف الطريق إلى تفكير علمي في مجال المعرفة الإنسانية.حيث أمست تناقضات الوجود منذ هيراقليطس في الفلسفة اليونانية حقيقة أولية ينطلق منها كل فيلسوف جاد إلى أن أمسكت بها الفلسفة الألمانية على يدي كل من هيغل وماركس ولقد وضح توفيق الحكيم معنى التعادلية في مقدمة كتابه بقوله"التعادلية تفسير الحياة الإيجابية بأنها ضرورة وجود قوى أخرى تتقابل وتتوازن في الكون والمجتمع".[11]و لتوضيح ذلك جنح إلى تطبيق هذا الافتراض على جملة من الظواهر تنير لنا السبيل بعض الشيء.فالواحد الصحيح يساوي صفرا ولذا فإن"الحياة الإيجابية"تبدأ من العدد" اثنين". فالله وحده هو الواحد الأحد الكامل بذاته، و مع ذلك أوجد بإرادته تعالى قوة أخرى مقابلة هي قوة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

الشيطان، كي تبدأ الحياة البشرية في التلون و التحرك، و خلق الله آدم واحدا صحيحا، فكان وجوده سلبيا. فصنع منه اثنين، ووجد آدم وحواء، وعندئذ أتخذ الوجود حركته الإيجابية ".[12]غير أنه " ينبغي أن تحتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة، لتعادل بها و تقابل القوى الأخرى التي تريد أن تبتلعك بذلك تقاوم و تتحرك و تحيا. فالتعادلية هي مقاومة الابتلاعية ". [13]

و ينتهي من ذلك إلى أن " التعادل" إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض... والإنسان كائن متعادل ماديا وروحيا. وهو ليس وحده الذي ينطبق عليه هذا التعريف. كل الكائنات التي تحملها هذه الأرض المتعادلة " [14]

وقصد تنزيل الإنسان منزلته في الكون يقدم عددا كبيرا من المفاهيم المتقابلة، يفترض أنها في تعادلية بسبب تقابل بعضها للبعض الآخر:الأرض والسماء، الشهيق والزفير، الفكر والشعور، العقل والقلب، الحركة والجمود، الحرية الإنسانية والإدارة والإلهية... وأما عن وضع الإنسان العام في هذا الكون، فهو يرى"بأن العصر الحديث قد أجاب بأن الإنسان وحده لا شريك له في هذا الكون، و أنه إله هذا الوجود، وأنه حر تمام الحرية. وبهذا الجواب الذي قضى على تعاليم الأديان، ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية ".[15] والسبب في ذلك هو اختلال التعادل بين قوة العقل وقوة القلب."فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وحدد وسائله ووسع آفاقه، في حين أن الدين وليد القلب بقي محصورا في أفقه، لم يكتشف منابع جديدة في أعماق القلب الإنساني، تتعادل مع تلك العوامل الجديدة التي اكتشفها العقل الجديد...ونجم عن ذلك إنكار كل ما لا يثبت بالبحث و الاختيار، ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أو وجود أخر غير وجوده فهو كائن وحده في الكون.. وكان لهذا الاختلال في التعادل نتيجته الطبيعية..القلق.فالقلق السائد في النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب في ميزان التعادل بين العقل والقلب... بين الفكر و الإيمان " [16]

ولئن اجتهد الحكيم في تقديم نظريته التعادلية، فإنه ينبغي علينا الإشارة إلى أن الكلمة الأخيرة تبقى—في نهاية الأمر—للقلب مصدر الإيمان بالله."فلنؤمن إذن بالقلب وحده..تلك قوته.ولندع العقل يفكر في مجاله وحده..تلك أيضا قوته...وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الإنسانية."[17]، إن التعادلية وتطبيقاتها في الوجود كثيرة ومتنوعة خصوصا وأن الكاتب قد وصل في سنة1982إلى أن ديننا"وهو الإسلام، وهو جزء من النظام الكوني، قائم على التعادلية، ولذلك أضاف قسما خاصا بالإسلام من وجهة النظر التعادلية." [18]ومن هنا، نجد لمختلف نشاطات الفكر وتصوراته مكانا في تعادلية الحكيم، بحيث إنه لو وجدت اليد اليمنى أطول من اليسرى لوجد لها الحكيم تفسيرا مرده انعدام التوازن أو التعادل بين الطرفين المتقابلين(اليد اليمنى و اليد اليسرى).

مصادر التعادلية و قيمتها التاريخية:

إذا كان الحكيم نفسه يدعو القارئ للنظر في كتابه وقراءته قراءة واعية مستكشفة، لأن القراءة في بعض الأحيان فن، بل أداء إيجابي معادل للكتابة—على حد تعبيره— فإننا سنحاول تأصيل أصولها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

وتقييمها.إن القارئ المتأني للتعادلية يدرك للوهلة الأولى أن مصادر هذه النظرية متعددة متنوعة، فمنها ما يعود إلى الفلسفة اليونانية القديمة، و منها ما يعود إلى الفلسفة الغربية الحديثة.

إن الحكيم في تعادليته ينظر إلى الكون والإنسان النظرة نفسها التي نظر بها فلاسفة اليونان، و هي نظرة تحاول جمع الأضداد في وحدة. وهذه النظرة تعود إلى"هيراقليطس"الذي يرى بأن حقيقة الكون أضداد تتعادل:النهار والليل، الشتاء والصيف، الحار والبارد والحياة والموت...دون أن ننسى" أنباذوقليس" ورأيه في المحبة والكراهية، في التجاذب والتنافر، اللذين يعلل بهما الحركة الدائبة في الكون من اتصال و انفصال يسببان كون الأشياء وفسادها. إضافة إلى مبدأ " الوسط الذهبي"عند:أرسطو" الذي يتوسط الحدين فيكون هو الفضيلة أو الحكمة، أو الوسطية كما جاءت في الإسلام و عند مفكريه.

غير أن الحكيم يرفض علاقة تعادليته بالمنزلة الوسطى، فنجده يقول:" ليست تعادليتي على صلة بالمنزلة الوسطى التي نجدها عند أرسطو وهي منزلة تتعلق بالأخلاق لا غير، فالشكل المتطور للحضارة لا يشبه الخط السوي و لكنه كالحلقة فحضارة المصريين القدامى كانت دينية، تبعتها حضارة اليونان العقلية، و نلاحظ نفس التتابع بين المسيحية وأوروبا فالدائرة فيما أدعو إليه ليست مجرد شكل هندسي، هي دورة حول نقطة هي المدار ويتم التطور في مدارات متحركة، وكل مخلوق يتم دورته فتتبعه بذرة جديدة، ويجب أن ندخل مفهوم النسبية في النعوت التي نستعملها...إن مجرد التوازن معناه الموت." (19)

فالحكيم يؤكد بهذا تواصل الحضارات و تتابعها، كما يؤكد التتابع الدوري للتاريخ. ولعل النقطة المركزية غير المعلن عنها والتي تمثل مركز الثقل في تفكيره هي ثنائية الموت والانبعاث.

ومهما يكن مصدر فكرته فإن تأثره بالثقافة الغربية واضح جلي خصوصا في نظرته لمشكلة الموت، إذ الموت في نظره: ليس في حقيقته إلغاء الوجود"ولكنه انتقال الموجود من وجود إلى وجود." (20)

فلا موت ولا فناء للمادة والطاقة...ولكنها تحولات و تداخلات و تغيرات في الأشكال و الأوضاع دائمة الحركة لا تنتهي... الحياة وجود دائم ...وكل موجود يتحرك... الحركة هي مظهر الحياة ومخبرها... الحياة هي حقيقة الوجود... الحياة هي الحقيقة الوحيدة في الكون. (21)

فناموس الحياة عنده هو التغير و التحول لا الثبات، بل إن أي شيء لا يشبه شيئا آخر من جنسه مثلما قال بذلك الفلاسفة السوفساطائيون و كذلك " لافوازيه "وبصورة عامة، فقد تأثر في نظرته بالثقافة الإسلامية كما تأثر بالثقافة الغربية " الوجودية "، غير أنه كان مشدودا إلى التراث الفرعوني أكثر من غيره. و قد علق على ذلك بقوله: " ربما كانت التعادلية عندي تستهدف أولا وأخيرا " مقاومة الضعف "، ولعل ذلك مرده إلى أنها امتداد أو بلورة لتفكيرنا المصري القديم في مقاومة الفناء ". (22)

ومن هنا تتجلى محاولة الحكيم بشأن إيجاد فلسفة مستمدة من الكيان الروحي للشعب، أي فلسفة مصرية، و قد غاب عن ذهنه أن إمكانية إيجاد فلسفة مصرية خالصة أمر مستحيل، على العكس من إمكانية تحققها فنيا، بل ربما كان نجاح الحكيم في تصوير الفكرة المصرية فنيا هو الذي أغراه بمحاولة صياغتها كنظرية فلسفية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

وما يلاحظ على عنصر البناء المنطقي للبحث في كتاب " التعادلية "، هو التعميم، و لعله أحد عناصر " تجربة الذهن: التي عاشها الكاتب في: برجه العاجي: بمعزل عن حركة المجتمع و قضاياه، و هذا التعميم جعله يستعمل كلمة:العقل:أو:القلب:مجردة من أي دلالة اجتماعية.ذلك أن العقل الإنساني له إطاره التاريخي الذي لا يعرف إلا به. فالعقل البدائي يختلف عن عقل القرون الوسطى، عن العقل في عصر الأنوار، عن العقل في العصر الحديث. وذلك لأن مفهوم العقل خاضع للتطور التاريخي وبالتالي فدلالته تتغير بتغير العصر والاتجاهات الفلسفية. وهذا ما جعل هذا المفهوم عند الحكيم مطبوعا بطابع سكوني ميتا فيزيقي مطلق، و كذلك مفهوم العلم. فالعلم عنده هو العلم التجريبي، أما العلوم الإنسانية فلا مجال لها ضمن دائرة العلوم، و ذلك لأن عملية التصنيف عنده لا تتم على أساس الاتصال و التفاعل و إنما على أساس الانفصال و التجاوز. و هذا هو أساس التعادلية التي تقوم على جوهر التناقض الشكلي المحض، فتصبح حركتها أشبه بالسكون و بالتالي يصبح للتاريخ مفهوم دوري و هذا هو الثبات الأعظم و السكون الأبدي.

والتعادلية ليست بحال من الأحوال مذهب الحكيم، إنما لا تعدو أن تكون أكثر من ستار من دخان قصد به التمويه أو اللعب لا أكثر ولا أقل.وأول الأدلة على ذلك اعتراف الحكيم بأنه لم يصدر في كل كتبه عن موقف واحد متماسك.[23]، وثاني هذه الأدلة أن "التعادلية"لا تمثل هي نفسها موقفا متماسكا. فعندما يقول الحكيم:" أنت تعادلي إذا اعتقدت أن الخير يجب أن يعادل و يوازن الشر"، فإن التتمة المنطقية لهذه المعادلة هي: " أنت تعادلي إذا اعتقدت أن الشر يجب أن يعادل و يوازن الخير".وهذا ما ينطبق أيضا على مبدأ "التعادل"بين الصحة و المرض.

فليس صحيحا أن الوضع الطبيعي للإنسان هو التعادل بين الصحة و المرض في جسمه كما يزعم الحكيم، لأن المرض بكل بساطة نفي للصحة، و لأن التعادل غير ممكن بين المتنافيات، و لأن الجسم المتعادل هو الجسم الصحيح لا الجسم الذي خالط المرض صحته".[24]

ومن ناحية أخرى، فإن عالم الحكيم هو عالم اختلال التوازن أو التعادل فهو لم يصور في أي عمل من أعماله الفنية شخصية متعادلة أو متوازنة.فمعظم شخوص أعماله يعانون من الشيزوفرينيا أو مجانين—إن جاز التعبير—وهذا لتأثره برؤية الكاتب المسرحي الإيطالي" بيراندللو".كما أنه يستحيل أن نعتمد على تفسيرأي عمل من أعماله الفنية انطلاقا من تعادليته لا نعثر على ما يصلح أن يكون تطبيقا لعمله النظر. وعليه فالتعادلية بالنسبة لشخوص أعماله الفنية" لن تكون في هذه الحال مذهبا يحدد كينونتهم، وإنما مذهبه فيما لم يستطع أن يكونه ".[25]

وبالمقابل إذا ما انطلقنا من أعمال الحكيم ككل كمذهب، لتقييم"التعادلية"أمكن لنا بسهولة أن نكتشف فيها لعبة المهندس الذي يحلو له أن يمارس لعبته المفضلة، لعبة الفرضيات الذهنية المجردة. المهندس الذي يريد أن يفرض فروضا خاصة لتتولد عنها " نتائج خاصة ".وقد تنبه هو نفسه إلى هذه الحقيقة في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

مستهل حياته الفنية: " إني أصلح أن أكون رياضيا، و أن أفكاري و تصوراتي تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية. أنا مع الآسف كذلك. و هذا ما سوف يهدم كل عمل مسرحي أزفني أحاول إنشاءه. إن إسقاطي الحياة والعواطف كما هي ... وركوني إلى الطريقة الرياضية في تصريفي أفكاري و تأملاتي لمصيبة كبرى."[26] وهذه الروح الرياضية هي التي أملت عليه أفكاره التعادلية.

و مرة أخرى، فإن مختلف آرائه تؤكد رؤيته العقلانية. و هجاؤه للعقل هو هجاء عقلاني، و الإنسان الأعلى، بالرغم من كل حديث الحكيم عن القلب و الإيمان، هو إنسان العقل، لأنه الإنسان المجرد، و التجريد عقل، ومثال هذا الإنسان هو " شهريار" و" بجماليون "و بهادر ".

أما رؤيا القلب فما هي عند الحكيم إلا شكل من أشكال الحنين أو مرفأ للخلاص من شكوك العقل وعذابه،لأنه رأى أنه ينبغي أن يقتل الجانب الإنساني فيه ليسمو بفكره و فنه، إذ الفنان ليس من مادة العالم الأرضي.

وإذا كان الحكيم مغرما بالفروض الذهنية، و لديه ميل إلى المطلق الذي يتصدى لشروط المصير البشري، فإن تجربة التعادلية تمثل سعي الإنسان إلى ذلك." فليس ما يصنع قيمة الإنسان امتلاكه للحقيقة – على حد تعبير لسنغ– التي لا يصل إليها ولا يعتقد أي إنسان أنه واصل إليها و إنما ما يصنعه جهده الصادق للبلوغ إلى الحقيقة، ذلك أن تنامي قواه يكون لا بامتلاكه الحقيقة بل بالتحري عنها." [27]

كما نلاحظ عدم استقرار الحكيم على رأي أو مبدأ، ويظهر ذلك في تعبيره عن اختلال العقل والقلب بقوله:" إني مثل ذلك " الملحد " الذي طرد حديثا من حظيرة الإيمان فتشرد بعد ذلك " بقلبه "" لا يدري أين يسكن !"... مثل صعلوك من صعاليك الحياة إذا طلع النهار انساق إلى ترهات العقل، حتى يجن الليل فأوى بقلبه إلى حيطان العقيدة ينطرح فوق الأفاريز." [28]

فالمراوحة بين الإلحاد و الإيمان، بين العقل والقلب والإحساس بالقلق والضياع هو عينه القلق الوجودي، و هذا ما دفع البعض إلى القول بأن هناك "ورطة ناشئة من تناقض أساسي في الحياة أو في زاوية النظر إلى الحياة، وهذه الورطة هي مصدر كل هذا الحوار الباحث عن الحقيقة و اللعبة المفضلة عند توفيق الحكيم في مختلف مراحل عمره هي أن يتركنا دائما على علامة استفهام. قل في مسرحه ما شذ عن هذا النهج. " [29]

هكذا راح الكاتب يبحث عن الحقيقة الجوهرية، حقيقة الكون و الحياة و لكنه فقد البوصلة، فضاعت منه الاتجاهات، و معالم خريطة الوجود، فرجع إلى نقطة البداية وكأنه لم يبرح مكانه. وها هو ذا يقول:" ثق أنه لا إجابة كاملة عن سؤال في الوجود، والمهم هو إيقاظ التفكير... إن في حركة الفكر القوة الدافعة إلى التقدم."[30].وما الحديث عن الحقيقة إلا ماء في غربال ورمال بين الأصابع! ... ولكن لابد مع ذلك أن تكون قد علقت بيدك قطرة ماء و حبة رمل... شيء خير من لا شيء..." [31]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

وعلى العموم، فالتعادلية نسيج لثقافات متعددة ومتباينة، وهذا التباين هو مصدر التناقض الذي اشتملت عليه، ونتيجة ذلك جاءت أفكاره قلقة وروحه كذلك وهذه نهاية الإنسان الواقع في إسار المظاهر الخادعة." فالإنسان –على حد تعبير–"دوريني"– قد اخترع التفكير، واخترع العلم، و اخترع الحب والمغامرة، والخطيئة، إنه يريد استعباد الحياة وتحويلها.وتحت المظاهر الخادعة راح يبحث عن الحقيقة." [32]ولكنه لن يصل إلى هذه الحقيقة الخفية بإتباع التعادلية.

وإذا كان"لكل عصر حقيقته الخاصة به...، فلسفته الحية الخاصة به تعبر عن النمط الغالب في ذلك العصر في تقدمه"[33]، فإن فلسفة الحكيم بخلوها من البعد التاريخي والاجتماعي أحالها إلى فلسفة سكونية، تعكس بصدق تعبيره عن انتمائه الطبقي وإخلاصه للفكر التوفيقي، وتعبير أمين عن تجربة الذهن في حياة راهب الفكر.

وإذا كان هذا الفكر بالغ الدلالة و الأهمية، فإنه مع ذلك عجز عن خلق تيار مواز له على صعيد الواقع، بل لم يستطع بلوغ ما هو أدنى من ذلك: لم يستطع في غالب الأمر الوصول إلى فهم الناس ولا بالتالي التأثير في سلوكهم. و هذا ما دفع " صلاح عبد الصبور " إلى " اعتبار فلسفة الحكيم هي التوفيق بين المادية والمثالية، كما كان أدبه توازنا بين الأصول والجذور الشرقية، و بين الثقافة الغربية وإن كانت اقرب إلى المثالية. وإذا كان قد استطاع أن ينسلخ عن الولاء لحزب من الأحزاب فإنه لم يستطع أن ينسلخ عن طبقته الوسطى، والطبقة الوسطى تختار دائما الحلول التعادلية. "[34]

ولعل هذه الحلول الوسطى، التي عادة ما تدل على الحيرة، هي التي دفعت العقاد إلى التهكم في نقده لها حين يدعو القارئ ساخرا إلى أن يأخذ نفسه بالحيطة، و أن يؤمن نفسه ضد حوادث الطريق قبل أن يتبع نصيحة الحكيم، لأنه فهم أن تعادلية الحكيم هي السير في وسط الطريق لا يمشي على الرصيف الأيمن و لا على الرصيف الأيسر بل في مكان معتدل بين الرصيفين، بينما الحياة على الدوام خروج على الحياد إلى جانب من الجوانب، و قدرة تقاوم دواعي التعادل إذا اقتضى الأمر و كثيرا ما يقتضيه.

وخلاصة القول:إن التعادلية ليست استيرادا محضا، وليست تقليدا ومحاكاة حرفية للفلسفة اليونانية وغيرها، إن الحكيم يقتطف زهرة من هنا وفسيلة من هناك، ولكنه يغرس هذه وتلك في تربة تكوينه الذاتي والموضوعي، فتثمر شيئا جديدا لا علاقة له إلا بألفاظ العقل والقلب والعلم و الفن...إنها تكاد تكون نظرة شاملة لإدراك الوجود الإنساني في الكون و المجتمع و هي تعبير أمين عن تجربة الكاتب الذهنية.

ومهما يكن من الأمر، فشرط بقاء الأمة هو الثبات في التغير، إذ الأمة موجودة في الزمن، و الزمن في ديمومة ومتطلبات اليوم غير متطلبات الأمس، و حتى تحافظ الأمة على وجودها و تؤكد استمراريتها التاريخية، يجب أن تتطور في هذا الزمن و تساهم في شروط ثباتها و ديمومتها بالأخذ والعطاء مع المحافظة على وجودها عبر هذا التغير. إنها مثل الكائن الحي لا يستمر إلا بالتفاعل مع محيطه ، إنها رؤية وفلسفة الحكيم .

الهوامش:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

1- توفيق الحكيم: من البرج العاجي، مطبعة التوكل، القاهرة 1941، ص: 47.
2- توفيق الحكيم: تحت المصباح الأخضر، مطبعة التوكل، القاهرة 1942، المقدمة.
3- لوسي يعقوب: عصفور الشرق توفيق الحكيم في حوار حول أفكاره و آثاره، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 1987، ص: 56
4- عبد العال الحمامصي: هؤلاء يقولون في السياسة و الأدب، كتاب الهلال، دار الهلال، العدد: 203. مارس 1976، ص: 103
5- المرجع نفسه، ص: 103.
6- توفيق الحكيم: عصا الحكيم، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 1985، ص: 33.
7- المصدر نفسه، ص: 70.
8- توفيق الحكيم: التعادلية مع الإسلام و التعادلية، نشر و توزيع عبد الكريم بن عبد الله، تونس، الطبعة الأولى 1989، ص: 28 – 29.
9- المصدر نفسه، ص: 30.
10- المصدر نفسه، ص: 25.
11- المصدر نفسه، ص: 27.
12- المصدر نفسه، ص: 26.
13- المصدر نفسه، ص: 27.
14- المصدر نفسه، ص: 31 – 31.
15- المصدر نفسه، ص: 35.
16- المصدر نفسه، ص: 35 – 36.
17- المصدر نفسه، ص: 40.
18- المصدر نفسه، ص: 100
19- جان فونتان: الموت و الانبعاث قراءة في أدب توفيق الحكيم، ترجمة محمد قويعة، الدار التونسية للنشر 1984، ص: 191.
20- توفيق الحكيم: التعادلية مع الإسلام و التعادلية، ص: 106.
21- توفيق الحكيم: حديث مع الكوكب، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان 1986، ص: 26.
22- غالي شكري: مذكرات ثقافة تحتضر، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، الطبعة الثانية 1984، ص: 242.
23- جورج طرابيشي: لعبة الحلم و الواقع، دار الطليعة للطباعة و النشر – بيروت – الطبعة الثانية 1979، ص: 26.
24- المرجع نفسه، ص: 26.
25- المرجع نفسه، ص: 27.
26- توفيق الحكيم: زهرة العمر، سلسلة كتاب الهلال، ص: 36.
27- إميل برهييه: تاريخ الفلسفة، القرن الثامن عشر، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1983، ص: 223.
28- توفيق الحكيم: عصفور الشرق، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1985، ص: 121.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378

29- لويس عوض: الثورة في الأدب، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر القاهرة، مصر 1967، ص: 416.
30- توفيق الحكيم: حديث مع الكوكب، ص: 108.
31- المصدر نفسه، ص: 73.
32- إسماعيل العربي: من روائع الأدب العالمي، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – الجزائر 1981، ص: 73.
33- إميل برهييه: تاريخ الفلسفة (القرن الثامن عشر)، ص: 223.
34- صلاح عبد الصبور: ماذا يبقى منهم للتاريخ، دار كتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة 1986، ص: 121-120.
35- خليل أحمد خليل: مستقبل الفلسفة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1981، ص: 13.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/378